الحلقة الأولي

فتوح مصر والسودان عند الواقدي في كتاب فتوح الشام والبلازري فتوح البلدان

من أروع انجازات العقل الإسلامي مكتبته التاريخية ، فقد ظهر مؤرخون أصبحوا سادة للبشرية في علوم التاريخ وأدب التدوين على غرار أبي عمرو الجاحظ والطبري وإبن كثير وابن الاثير وابن خلدون والمقريزي وغيرهم ولولا هؤلاء لفقد التاريخ الإنسان فصول هامة من سجلاته ، وفي هذه المقالة المختصرة نستعرض فصلين صغيرين من كتاب عالمين كبيرين هما محمد بن عمر الواقدي والبلاذري أما الأول الواقدي المولود 130هـ ومتوفي 207هـ 747/ 823م ومولود بالمدينة المنورة أواخر أيام الدولة الأموية . وكان الواقدي يصنف في كل فنون العلم من المغازي والسير والطبقات واخبار النبي (ص) والفقه والحديث ، ومع إن الشافعي مات قبل الواقدي إلا انه روي عنه ، وفي رواية أن الإمام مالك على عظمة قدره ، سأل الواقدي عن خبر المرأة التي سمت النبي (ص) بخيبر ، فقال له ، الذي عندنا انه قتلها.

لم اقف على اهم كتب الواقدي عن فتوح مصر والسودان ، مثل كتابه فتح مصر والإسكندرية ، وكتاب فتوح مصر وأعمالها وكتاب فتح إفريقية أو فتوح إفريقية ، ولعل طرقي تتقاطع يوما معها ولكن ظللت احتفظ بكتابه فتوح الشام ، منذ أمد طويل ولم تتيسر لي فرصة التدقيق فيه ، وحينما حانت الفرصة واعتدل المزاج ، بدأت بالمجلد الثاني ، ويقع الكتاب ففي قرابة الثمانمائة صفحة، وإبتدأت بالقراءة في فتوح مصر – المصنوفة بعنوان فتوح البهنسا واهناس ، وكلاهما من مدن مصر المعروفة ، فالأولي مدينة من أعمال بني سويف في الصعيد والثانية مدينة في جنوب القاهرة ، ومما لفت نظري في فتوحات هذه المناطق التي جاءت بعد فتوح الوجه البحري من مصر والتي تضم الإسكندرية ودمياط ورشيد وغيرها، أن المعارك التي دارت بين المسلمين وملوك الصعيد من الروم كانت اساس الجيش من السودان والنوبة والبجة ، ولعل المقصود بالسودان من غلب عليه اللون الاسود والدم الزنجي أما النوبة فهو الشعب المعروف في جنوب مصر وشمال السودان والذي ابتني الممالك المعروفة على طول النيل من أسوان حتى الخرطوم بطابعها الحضاري المميز– أما البجة فهو الشعب المعروف والذي يمتد عبر شرق السودان رابطا السودان وإريتريا وإثيوبيا .

بدأت فتوح في صعيد مصر في عند عمر بن الخطاب حينما عزز الجيش الذي فتح الوجه البحري بقيادة عمرو بن العاص بجيش آخر قوامه عشرة آلاف جندي فيهم خالد بن الوليد ، والزبير بن العوام ومالك الأشتر والفضل بن العباس وجابر الانصاري ويصف الواقدي

المعركة الأولي بأنها كانت ضد صاحب مدينة أهناس الذي استعان بالكيلاج الذي كان يحكم إلى عدن والبحر المالح إلى بلاد البجا والنوبة وحد السودان ، ووصف جند البجا الذين جاءوا للمعركة الأولي ضد المسلمين بأنهم بقيادة ملكهم ومعهم ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفايح الفولاذ ، في كل قبة عشرة من السودان ، طوال القامة عراة الأجساد على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور وغيرها ومعهم الدرق والحراب والكرابيح والفنسي والمقاليع والأعمدة الحديد والطبول والقرون ، وكانت عدتهم عشرين الفا بالإضافة إلى نحو مائتي الف فارس وخمسين ألف رجل من النوبة والبربر والبجاوة والفلاحين ، وشاركت في الحرب خولة بنت الأزور ، التي شق عليها أسر أخيها ضرار في معركة سابقة ، ودخل المسلمون في عدة معارك وفي مناطق مختلفة ومع إنهم كانوا يسجلون انتصارات إلا أنها لم تك كافية لكسر شوكة المقاومة المصرية التي كان جنودها ووقودها السودان والنوبة والبجا وتكررت صيحة النفير يا خيل الله اركبي وفي الجنة أرغبي والثواب أطلبي ، وقد أحاطت الافيال وتصايحت النوبة والبجاوة والروم وأدار المعركة ضدهم خالد بن الوليد ومعه أبوهريرة والفضل بن عباس وقتلوا مائة وستين فيلا واستشهد من المسلمين مائتان واربعون رجلا.

ومن المعارك التي وصفها الواقدي ضد السودان والروم المعركة التي استعان بها عمرو بن العاص وخالد بالنساء قائلا : (إني احضكن إذا جاءت الروم والسودان فقاتلن عن انفسكن كما قاتلتن في يوم أجنادين ويوم اليرموك – فكانت إجابة النساء لنضربن وجوه الروم والسودان حتى لايبقي لنا عذر – قال الواقدي (وتزاحمت السودان والبربر والنوبة والجباوة ، فلما تقارب الجمعان ومن اصحاب الفيل نشابهم ، فكانت كالجراد المنتشر ، وكان في أصحاب الفيلة من السودان والبربر وسواكن ، يسمونهم القواد ، شفافهم العليا مشقوقة وبها خرام من نحاس .. وما كنت تري إلا دما فائرا وكفا طائرا وجوادا غائرا هذا وقد زحفت السودان) وقاتلت نساء العرب الأعلاج الغلف والسودان فقاتلن قتال الموت وسالت الدماء على وجوههن وهن يقلن الله الله – وطارت الجماجم وحامت طيور المنايا وعظمت الرزايا وبربرت السودان بلغاتها ورفعن الروم اصواتها – واشعل المسلمون النيران لإخافة الافيال وقتل من السودان والروم مالا يحصى وتم اسر خمسة آلاف منهم ، بينما قتل من المسلمين خمسمائة وثلاثون رجلا، ووصل امر المعركة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففرح بذلك فرحا شديدا – وقرأ الكتاب على على بن ابي طالب وعثمان وابن عوف والعباس عم رسول الله– شارك النوبة والسودان والبجا في معارك الدفاع عن صعيد مصر في وجه الزحف الإسلامي وقدموا من التضحيات ما لم يقدمه المصريين من الفلاليح الذين لم تك لهم خبرة بالتقال ، لأن أمر القتال كان عند الروم القوى المستعبدة والمستعمرة لمصر ، وكان أهل

السودان يعرفون أن معارك صعيد مصر ستحدد وضعية ممالك النوبة والبجة ، وأن ممالكهم ستؤكل يوم تؤكل ممالك صعيد مصر ، وخاض أهل السودان بأفيالهم وعتادهم هذه المعارك بعيدا عن دنقلة وعن حدودهم – ومن الغريب أن المصادر سكتت عن دور النوبة والسودان والبحاوة في مناطق الصعيد(بهنسا وماوراءه) مناطق المنيا حتى أسوان الحالية – وربما رجع النوبة إلى بلادهم بعد التضحيات الكبيرة التي قدموها، خصوصا أن نصاري الفلاحين لم يشاركوا في هذه الحروب ، ووقع العبء على أهل السودان من النوبة والبجاوة واستقر الأمر للمسلمين في مصر ، وبعد ذلك فكروا في فتح بلاد النوبة ، ووقع ذلك بعد ثمانية سنوات من استكمال فتح صعيد مصر وفي الحلقة القادمة نستعرض حروب النوبة مع المسلمين هذه المرة دفاعا عن دولتهم وعاصمتهم تلك الحروب التي انتهت بعهد البقط بين عبدالله بن أبي السرح وقليدورس ملك النوبة .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد

الحلقة الثانية

فتح بلاد النوبة

ورد في الحلقة السابقة ، جهود السملمين في كسر شوكة الروم في مصر ، فقد كانت مصر مستعمرة رومية ، وكان نصاري مصر قابعين تحت نير واضطهاد الروم ، لذا يمكن النظر إلى فتح مصر من زوايتين .

الأولي : تحرير مصر من قوى باطنية مستعمرة وتحرير الضمير المصري من سطوة الكنيسة الغربية التي كانت تريد تشيكل المزاج الديني المصري على غرار مذاهب الروم وأبطال مذهب الكنيسة الشرقية الأروذوكسية ولذلك نظر أهل مصر للفتح الإسلامي كحركة تحريرية حررت مصر من الغاصبين.

ولكن من سخريات القدر أن الممالك السودانية كالنوبة والبجا غيرها، تحالفت مع الروم وكل المعارك التي دارت في مصر السفلى " ماوراء القاهرة اليوم " كان وقودها أهل السودان بكل ثقلهم وعتادهم ورجالهم وأفيالهم ولا ندري إلى الآن لماذا رمي ملوك السودان القديم كل ثقلهم مع الروم، وهذه ليست أول مغامرة خارجية للدولة السودانية فمن قبل حررت الدولة الكوشية بقيادة بعانخي ثم ترهاقا كل مصر من تأثيرات الأشوريين بل وحررت فلسطين ذاتها من قبضة الاشوريين وحكم ملوك السودان مصر والشام ، فهل كان ملوك السودان الذين حاربوا معارك الروم في مصر يطمعون في تكرار ذات الدور أم كان لهم تحالف استراتيجي بعيد المدى مع الروم – أم هي مغامرة مدفوعة الأجر كما هو حال الأورطة السودانية في المكسيك أيام الخديوي محمد سعيد والتي حاربت حروب فرنسا في المكسيك وهي حروب لا ناقة للسودان فيها ولا جمل أو كحروب السودان في شرق إفريقيا (كرن) وشمال إفريقيا وهي كذلك معارك الإمبراطورية البريطانية والآن كأنما التاريخ يعيد نفسه معارك الأورطة السودانية في بلاد العرب.

يقول عمر بن عبدالعزيز أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد " الواقدي ص 219" ولكن نعلم أن أهل مصر السفلي كان لهم عهد من عمرو بن العاص أنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم" ولكن كما ورد في الحلقة السابقة أن بقية مصر فتحت عنوة وبتضحيات مأهولة وتم تحريرها من سيطر الروم ، أم في مصر العليا أو الصعيد– فقد استشهد الآلاف من الصحابة خصوصا في فتح مدينة بهنسا التي يقال أنّه دفن في تربتها خمسة ، آلاف صحابيا – أم النوبة والجباة فقد ماتوا بالجملة مع أفيالهم دفاعا عن الدولة الرومية في مصر– هل يا تري هي الحمية الدينية ولكن النوبة كانوا أرذوكس على منهج اليعاقبة " الكنيسة القبطية " بينما الروم على منهج الكنيسة الغربية الملكانية – ما يهم تراجع

ملوك النوبة إلى حصونهم وممالكهم وسكتت حوليات المسلمين وكتب التاريخ ثمانية سنوات ، واكتفي كل فريق بالرصد والمتابعة، المسلمون إنشغلوا ببناء دولتهم في مصر ، كما تعرضوا لصدمة اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب ومجيء سيدنا عثمان بينما انشغل النوبة بعلاج جراحاتهم والإنكفاء على أمر ممالكهم وقد ذاقوا طعم الهزيمة وبأس الجيش الإسلامي .

وبعد ثمانية سنوات من الإستقرار والسكوت والصمت ، ثم تجهيز حملة بقيادة عمرو بن العاص لمد حدود الدولة الإسلامية في اتجاه النوبة– وهناك رواية وردت في الواقدي 225 أن الجيش " أي النوبة أو البجا " ظلوا يقاتلون بعد فتح مصر سبع سنين ولم يقدر عليهم المسلمون وكان من أساليبهم في المقاومة تفجير المياه في الفيافي والمسلمون لم يعرفوا هذه الحرب لأنهم أهل صحراء.

قاد عقبة بن نافع" إلي عمرو بن العاص " جيشا فقاتل النوبة قتالا شديدا وانصرف المسلمون بجراحات كثيرة وحدق مفقوعة ، فسموا رماة الحدق ، ولما ولي مصر عبدالله بن السرح – سأل ملوك النوبة الصلح والموادعة فاجابهم إلى ذلك على غير جزية ولكن على هدية ثلثمائة رأس في كل سنة وعلى أن يهوي المسلمون لهم طعاما يقدر ذلك ، وقد سار هذا العهد أو الهدنة ، لأنّ يزيد بن حبيب وهو نوبي لأن والده أخذ من النوبة في عهد البقط ، واصبح بعد ذلك قاض الإسلام في مصر يقول ليس بيننا والأساود بعهد ولا ميثاق إنما هي هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطونا دقيقا فلا باس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم.

وانتهي المسلمون بأنه الأولي الصلح مع النوبة لأنهم سلبهم قليل وإن نكايتهم لشديدة، وفي ايام الخليفة العباسي المهدي مضى عهد البقط بأن يرسل النوبة ثلثمائة وستين رأسا وزراقة على أن يعطوا قمحا وخل خمر وثيابا وفرشا (الواقدي ص 329) وهذه أشبه باتفاقيات تبادل الأفراد ، لأن كل رعايا النوبة كانوا يعتبرون مملوكين للملك ، ولعل النوبة كانوا يتنافسون على هذه الثلثمائة وستين خانة ، للذهاب إلى مصر للعمل في الجيش وخدمة القصور ، اشبه ما يكون بحال المغتربين اليوم ، على خلاف في الوضعية ولكن هؤلاء المجندين من النوبة أصبحوا قادة الجيش المصري بل وملوكا على مصر كما في حال كافور الأخشيدي وفي عهد المتوكل 341هـ، جاء ملك البجة على بابا بنفسه إلى بغداد وصالح على أداء البقط والأتاوة.

ولعل في عهد البقط إشكالية تتعلق بمسجد دنقلة العجوز ، هل ابتناه عبدالله بن ابي السرح أم كان موجودا قبل ذلك – ولعله كان موجودا قبل ذلك ، لأن النص يتكلم عن المسجد الذي ابتناه المسلمون بدنقلة وإذا صحت فرضية أن المهاجرين الأوائل وصلوا إلى هذه المنطقة فربما كان أثرا من آثار هجرتهم والله اعلم – والشاهد أن في تاريخ تقبل السودانيين للإسلام ثغرات

وفجوات ولعله يأتي اليوم الذي يستطيع بعض الطلاب الموهوبين الجمع بين ما ورد في المصادر المكتوبة مع الشواهد التاريخية والحفريات والله أعلم ..

أ.د. حسن مكي محمد أحمد